الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

جدلية الإنسان بين التيه والهداية

التمكين الإيماني أمام الاستحواذ الشيطانيّ

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA LONDON - UK

AMIEE
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في زمن تتسارع فيه إيقاعات الحياة وتتعقّد مسالكها، يقف الشباب على مفترق طرق حاسم، فمن جهة، يواجهون موجات متلاحقة من التأثيرات الخارجية التي تستهدف بناءهم الداخلي وتوازنهم النفسي، ومن جهة أخرى يواجهون تحديات غير مسبوقة تستهدف كيانهم الإيماني وهويتهم الروحية، ورغم ذلك وتلك، فإنّهم يحملون في أعماقهم بذور الخير والنور التي تحتاج إلى من يرعاها ويغذيّها، فيبرز السؤال الجوهري هنا :

كيف نحمي شبابنا من التحديات المعاصرة، وكيف نمكّنهم من أن يصبحوا قوة إيجابية فاعلة في مجتمعاتهم، قادرة على التمييز بين الخير والشر، وعلى بناء حضارة قائمة على القيم الإنسانية النبيلة؟

فعلى الرغم من تنوّع أساليب الاستحواذ الشيطاني من الإغراءات المادية الصارخة إلى الحرب الناعمة التي تخترق العقول عبر الشاشات ووسائل التواصل، مستغلةً الفراغ الروحي وضعف الحصانة الإيمانية، إلاّ أنّ اللّٰه وصف تلك الاستحواذات بقوله : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ (النساء،76)، فمن خلال امتلاك أدوات التمكين الإيماني، يمكن بسهولة تحويل الشباب من حالة الدّفاع إلى موقع الفاعلية.

فلو تعمّقنا في وسائل ومضامين الاستحواذ الشيطاني، فإنّنا سنجده لم يعد مقتصراً على الوسوسة التقليدية، بل تطوّر ليشمل منظومة متكاملة منها؛ التزيين المنظّم، من خلال تقديم المعاصي في قوالب جذابّة عبر الإعلام والفنون الهابطة، وهذا ما كشفه اللّٰه تعالى وبيّن فيه منهجية عمله بقوله : ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: 43)، ومن خلال التفكيك الأسري، وتدمير مفهوم الرجولة والأنوثة الحقيقية، ممّا يُفقد الشباب النموذج الصالح للاقتداء، ومن خلال الاحتلال الفكري بتغذية الشبهات الدينيّة ونشر الشكوك في الثوابت، مستهدفين بذلك "بصائر القلوب" التي تميّز بين الحقّ والباطل، والتي حذّر منها القرآن بقوله: ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج:46).

فالواقع الرقمي اليوم يكشف عن مؤشرات مقلقة تستدعي الانتباه، فوفقاً للدراسات الحديثة، فإنّ الشّاب العربي يقضي في المتوسط ثماني ساعات يومياً أمام الشاشات، منها 5 ساعات على وسائل التواصل الاجتماعي، إذ يتعرّض لأكثر من 3000 رسالة إعلانية ومحتوى مختلف يومياً، ومنها 60% تحمل قيماً مناقضة للمبادئ الإسلامية، هذا وقد أظهرت الدراسات أنّ 73% من الشباب يعترفون بتأثّر سلوكهم بما يشاهدونه عبر المنصات الرقمية، بينما 45% منهم يشعرون بالتشويش الفكري نتيجة تضارب المعلومات والقيم المطروحة عليهم، ممّا يؤكّد خطورة الاحتلال الرقمي للعقول الشابة وضرورة مواجهته بأدوات علمية ومنهجية واضحة.

لذلك فقد برزت حاجة حيويّة لتحقيق تمكين روحاني وتربوي للشباب، لا بوصفه برنامجاً يُطبّق أو مشروعاً يُنفّذ، بل بوصفه رؤية حضارية شاملة تهدف إلى بناء إنسان متكامل، قادر على العطاء والإبداع، محصّن ضد التحديات، فاعل في مجتمعه، مساهم في بناء مستقبل أفضل للإنسانية، وهذا التمكين يتطلّب تضافر جهود مؤسسات التنمية المجتمعيّة بأكملها، ويحتاج إلى رؤية طويلة المدى وصبر على النتائج، إلاّ أنّ العائد يستحق الاستثمار، فالشبابّ المتمكن روحانياً وتربوياً، ومتحصّن فكرياً، هو أساس النهضة الحقيقية، وهنا يظهر دور الأسرة في غرس القيم الأساسية، وتوفير البيئة الآمنة، والمتابعة والتوجيه، وتقوم مؤسّسات التعليم من جهتها أيضاً بتعليم الشباب كيفيّة التعامل مع الآخرين من خلال التعليم القائم على القيم، والأنشطة اللاصفية، والتوجيه والإرشاد، فضلاً عن دور المؤسسات الدينية التي تقوم بربط الشباب بالقيم الروحية، والمؤسسات الثقافية التي تنمي الوعي والثقافة، والمؤسسات الرياضية والترفيهية التي توفر بدائل صحية منضبطة لقضاء الوقت.

وفي سبيل بناء ذاك الجيل الذي نريده، فإنّه قد استوجب علينا إملاكه ثواليث التمكين الإيماني، التي من شأنها أنْ تقوم بسدّ الفراغ الروحيّ، وتعزيز المناعة الجماعيّة، وتغذية البصيرة القلبية، وكشف أساليب التزيين الشيطاني، وضبط إيقاع الحياة، ومنها:

- ثالوث بناء الشخصية المتوازنة القائم على؛ تنمية البصائر، الرجولة الإيمانيّة، والأنوثة المصونة.
- ثالوث الذكر والاستعاذة؛ من خلال التحصين اليوميّ، الرقية الشرعية وقراءة القرآن، والاستعانة بالصلاة.
- ثالوث التربية المجتمعيّة؛ من خلال تربية القدوة الأسرية، والقدوة التربوية التعليميّة، والقدوة المجتمعيّة.
- ثالوث التربية الروحيّة والأخلاقيّة؛ من خلال التربية بالقدوة، وملازمة الصالحين، وتربية القيم والأخلاق.
- ثالوث المهارات القياديّة، من خلال تنمية مهارات النقد والتحليل والابتكار.
- ثالوث التعلّم التفاعليّ؛ من خلال المناقشة والحوار، والتعلّم بالممارسة، والتعلّم التعاونيّ.
- ثالوث الصحبة الصالحة؛ من خلال الصحبة المرشدة، والبيئة الداعمة، والأنشطة الجماعية.
- ثالوث التوعية الرقمية؛ من خلال محتوى رقمي تربوي، ومنصات تفاعلية إيجابيّة، وتوعية رقمية آمنة.
- ثالوث الاستنارة؛ من خلال التفكّر والإبداع والاستكشاف.
- ثالوث التطوير الذاتي؛ من خلال طلب العلم، وتزكية النّفس، والعمل الصالح.

ناهيك عن ضرورة التوجه نحو بناء منظومة أمن فكريّ للشّباب للتصدّي للعولمة الفكرية، وتحصينهم قيمياًّ ومجتمعياًّ من كلّ ما من شأنه النيل من الهويّة والانتماء الوطنيّ لديهم، إذ كان للتاريخ نصيب في تسجيل عدد من الاختراقات الأمنيّة والقيميّة التي زعزعت انتماء وولاء بعض الشباب من خلال إغراءات وتضليلات أدّت بهم لخيانة أوطانهم، وهنا مناشدة للمنظومات الأمنية في الدول العربيّة قاطبة، بضرورة التيقّظ والاستفادة من دروس غيرهم من دول كان شبابها ضحايا لهذه الاختراقات، وفي الوقت ذاته، فقد توجب علينا التوجّه نحو الاستثمار الأمثل لهذه الطاقات الشابة، ووضع برامج ومشاريع من شأنها المساهمة في تنمية روح الانتماء والولاء لديهم.

هذا وقد أدركت أغلب المجتمعات الحاجة لتوفير هكذا تمكين لشبابها، فكانت هناك العديد من قصص النّجاح والعديد من النّماذج التي قدّمت برامج للتمكين الإيماني لشباب مجتمعاتها وتركت أثراً ونتاجات عميقة لا يمكن التغاضي عنها، فلا يخفى علينا بأنّ الشباب المتمكّن إيمانياً وقيمياً وفكرياً ليس مجرّد متلقٍ للتوجيه، بل هو صانع للتغيير ومحرّك للنهضة بما يمتلكه من حسّ أمني يقوده للحفاظ على مقدّرات وطنه، فقد شهدنا نماذج ملهمة أثبتت أنّ التمكين الإيماني لا يصنع أفراداً صالحين فحسب، بل يخرّج قادة قادرين على قيادة التغيير الإيجابي في مجتمعاتهم، من مثل:

- برنامج "خطى" اليمني، الذي اعتمد على التربية القرآنية المركّزة التي تجمع بين التحصين العقدي والتطبيق العملي، فكانت نتاجاته صنع جيلٍ مقاومٍ للانحرافات.
- برنامج" خطة حياة" الإفريقيّ، الذي استهدف مناطق انتشار "الشيطانية والوثنية"، ونجح في خفض معدلات الإدمان بنسبة 40%، وزيادة المشاركة في الأعمال التطوعية الدينية بنسبة 65%، من خلال قيامه بتقديم ثنائية التمكين الروحي وتنمية المهارات الحياتية للشباب.

ورغم كلّ ما يمكننا تقديمه لهذا الجيل، إلاّ أنّ هنالك مجموعة من التحديات المعاصرة التي وجب علينا التنبّه لها، من مثل؛ مواجهة الإغراءات الرقميّة وما تحمله من أفكار منحرفة، وإباحيّة فكريّة، وإنحلالات أخلاقيّة تحت شعارات الحريّة الشخصيّة، ومواجهة التفكك الأسري الذي نتج عن فقدان الأب لصفته الشرعيّة وغياب التربية المتوازنة، والانحرافات الفكريّة، من خلال تعرّض الشباب للشبهات المبطّنة والتفسيرات المضلّلة، ومواجهة أزمة الهوية والانتماء إذ إنّ الشباب اليوم يعيشون صراعاً بين القيم الأصيلة والثقافات الوافدة، ممّا يولّد لديهم تشويشاً في تحديد هويتهم الحقيقيّة، ومواجهة ضعف الثقة بالنفس والقلق المستقبليّ الناتج عن عدم الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي وغموض المسارات المهنية.

فضلاً عن ضرورة محاربة الإدمان على وسائل التواصل الاجتماعي وما ينتج عنه من عزلة نفسية وضعف في المهارات الاجتماعية الحقيقية، ومواجهة معضلة فقدان المعنى والغرض من الحياة إذ يشعر كثير من الشباب بالفراغ الروحي وعدم وجود هدف سامٍ يسعون إليه، وإيجاد حلٍّ لضعف الصلة باللّٰه والتراخي في العبادات ممّا يؤدي إلى جفاف روحي وفقدان البوصلة الأخلاقية، ومحاولة تقليل التأثر بالنماذج السلبية في الإعلام التي تروّج لقيم الاستهلاك والمادية والشهرة السطحية، ومواجهة مشكلة ضعف التحصيل العلمي والأكاديمي بسبب تشتت الانتباه وفقدان الدافعية للتعلم الجاد، والميل إلى الحلول السهلة والسريعة وتجنّب الجهد والمثابرة في تحقيق الأهداف، وانتشار ثقافة التبرير واللامبالاة تجاه المسؤوليات الشخصية والاجتماعية.

لذلك فإنّ مواجهة هذه التحدّيات تتطلّب منهجاً شاملاً يجمع بين التربية الروحانية والحلول العمليّة، مع التأكيد على أنّ التّغيير الحقيقيّ يبدأ من داخل الإنسان، ومن ثمّ ينعكس على سلوكه وعلاقاته.

وختاماً هي البداية،

بداية تكمن في تحقيق التمكين الإيجابيّ، والتحصين الإيمانيّ والقيميّ والفكريّ للشباب، لصنع قادة للمستقبل، وحماة للدين، ومالكي زمام التغيير لمواجهة حقيقة الاستحواذ الشيطاني، لذلك فقد استوجب أنْ تتحوّل المؤسّسات التربوية إلى ورشات عمل دائمة لبناء "البصائر النافذة" و"القلوب الحية" التي تميز الحق عن الباطل، إذ يقول اللّٰه تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(الأنفال:29)

فبقدر تقوانا يكون تميّزنا، وبقدر بصائرنا تكون منعتنا، فالشيطان لا سلطان له على القلوب العامرة بذكر اللّٰه، المتمسكة بحبله المتين، فلله درّ بصائر قلوب سليمة، صلتها وثيقة باللّٰه، كاشفة للحق، تؤتي الحقائق دون تزييف أو إسفاف!